كلمة عميد كلية الزراعة في الجامعة اللبنانية ورئيس المؤتمر البروفسور تيسير حمية

راعي المؤتمر معالي وزير الزراعة الدكتور حسين الحاج حسن ،
سعادة رئيس الجامعة اللبنانية البروفسور زهير شكر، أصحاب المعالي والسعادة والسيادة،
السادة والسيدات ممثلي الهيئات الرسمية والدبلوماسية والعسكرية والأمنية والهيئات المدنية والاعلامية،
أيها الزميلات والزملاء، أيها الحفل الكريم،

سوف أبدأ بسرد قصة قتل شجرة الدلب المعمّرة في قريتي....لأنتهي بمؤتمر مكافحة ظاهرة التصحر في لبنان

في قريتي عينٌ ونبعٌ ونبيٌ وشجرةُ دلب.....
عينٌ تسربَّتْ من جوفِ الأرضِ فانبجستْ ماءً زلالاً لذةً للشاربين
ونبعٌ تفجّر جدولاً شقّ طريقه بين الرياحين....
ونبيٌ أضفى على القرية روحاً وقلباً وحناناً....
وشجرةُ دلبٍ تسامتْ نحو العلى لتطال السحاب فيئاً وعنفواناً...
وغرستْ جذورَها في خبايا الأرض كنوزاً وعلماً وافتناناً....
ونسيماتٌ حالمات...
وتلالٌ في عمق الأرض راسيات....
ومناخٌ عادلٌ وهواءٌ مُرهفٌ رقيق الإنسياب...
وسفوحٌ تُزْهِر خيراتٍ وثمرات....

ونبعٌ ذو صلةٍ وثيقةٍ بالنّاس.... ولهُ قصةُ حياةٍ مع تربتِها المِعطاء....
وهو مصدرُ الخيراتِ فيها، كان ولا يزال،
ولولاهُ لانقطعَ جوهرُ الحياةِ من نفوسِ أه الي القرية.....

وللنبيِّ عينُ ماءٍ قد تسمَّتْ باسمه....
ومقامُ البني قد توجَّه بناظريه نحو تلك العين
وللعين علاقةُ حياةٍ قديمة مع شجرة الدلب
التي قد غرست جذورَها في جوف التاريخ.....

وقد كانت العينَ تحِنُ بنورها وأريجِها
على شجرةِ الدلبِ فتزيدُ من بهائِها.... وترفعُ من سموِّها وعلوها ....
وكانتْ ذرَّاتُ ماءِ العين تتعانقُ مع شراايين شجرةِ الدلب
فتعطفُ هذهِ على تلك، لتتكامل بذلك صورة الجمال

بلوحة طبيعية خلابة قلَّ أن تجدَ لها نظيراً.....

ولمّا ضاقتْ الأرضُ ذَرعاً بشرايين شجرةِ الدلب،
خرجتْ تلك الشراييْنُ من جوفِ الأرض إلى العيان....
لتتنفسَ الصعداءَ وتبوحَ ببعضِ سرِّها لأهالي بلدتي.

وكان الشيوخُ والفتيانُ غالباً ما يلجأونَ إلى شجرةِ عين النبي
لينعموا بعَطفِها ونسماتِ برِّها بصيفِها،
أو يختبئوا داخلَها إذا ما أمطرتْ شتاءَها أو أثلجتْ ببَردِها....

وكان الطلابُ يقصدون عينَ النَّبي
ليستزيدوا من مائِها عِلْماً....
ومن ظلِ شجرتِها ضِياءاً ونوراً....
وكانوا كلما اقتربتْ امتحاناتُهم....ازداد قربُهم وتعلقُهم بمقامِ النَّبيِّ وعينِه وشجرتِه....

ومضتْ الأيامُ وانقضتْ السنون.....
وعدتُ إلى العينِ بعدَ غيابٍ طويل، فلم أجدِ العين.....
ولم أجدْ سوى قطعةٍ صغيرةٍ من شجرةِ الدلبِ الأبدية.....

لكنِّي وجدتُ النبيَّ يُطِل بمقامِهِ نحوَ العينِ والشجرة،
وعينا مقامِهِ دامعتانِ باكيتان،
يكادُ أنينُ بكائِهِ يُعمي العيونَ ويُصمُّ الآذانَ
ويعيي اللسانَ عن النطق والهيان.....

فسألتُ عمَّا كانَ كيفَ كان؟
فأُجِبتُ بأنَّ بعضَ زائري المكان
لمَّا رأوا أنَّ شجرةِ الدلبِ لكَرَمِها
قدْ جَعَلَتْ لنفسِها غرفةً مجوَّفةً في قلبها
أوقدوا ناراً في جوفِها
فحرقوا القسمَ الأكبرَ من الشجرة،
وهوى عرشُها المكين نحوَ أرضِ النبي....
غير أنَّ شجرةَ الدلبِ بقيتْ مع ذلك صلبةً عاصيةً على الزمان،
تشرقُ بعنفوانِها على الوادي السحيق....

ثمَّ إنَّ بعض النَّاسِ أرادوا طريقاً لهم.....
فأنهالوا باسم الحضارةِ ضرباً على ما تبقى من شجرةِ الدلبِ
فحطموها بفؤوسهم وهشَّموا عنفوانَها بوضيع جهلِهم
ثمَّ قطَّعوها إرباً إرباً....
بعد أن عَطفتْ عليهم وعلى آبائِهم وأجدادِهِم قروناً وقروناً،
ثم حَرَموا أجيالَهم القادمةَ من أصالةِ التاريخ ومن عربونِ الوفاء،
ولم يصابوا بأيِّ وخزٍ للضمير...

ثمَّ سألتُ عن عينِ النبيِّ ومائِها،
فقيلَ لي إنَّ العينَ قد غارتْ وجفَّ ماؤها.....
عندها أدركت بأنَّ العينَ قد ماتتْ حزناً على رفيقةِ دربها
مَنْ تغذَّت بمائِها ونشأتْ على نورها،
شجرةِ الدلبِ شجرةِ النبيِّ شجرةِ الحياة....

ولمَّا ماتتْ شجرةُ الحياةِ ماتتْ الحياةُ في عينِ النبي
فجفَّ دمعُها وغارَ ماؤها...

هنا انتهت القصة.

رجعت إلى نفسي أمام هول ما رأيت ونظرت إلى البيئة التي تحيط بنا وتساءلت لماذا أصبحنا على ما نحن عليه ولماذا أصبحت أرضنا مواتاً كما هي عليه اليوم حيث لا تتجاوز المساحات الخضراء في وطننا العشرة بالمئة بعد أن كانت تغطي ، منذ حوالي الأربعين سنة، أكثر من ثلاثين بالمئة من المساحة الإجمالية من لبنان.

تذكرتُ عندها مقولة للعالم والطيّار والكاتب **Antoine de Saint-Exupéry :**

« Nous n'héritons pas de la terre de nos parents, nous l'empruntons à nos enfants ».
"نحن لا نرث الأرض من أسلافنا إنما نستعيرها منهم لأبنائنا".

لقد أعارنا آباؤنا أرضاً جميلة خضراء وبيئة نظيفة غناء وأمطاراً صافية كنا نشربها من الأرض ومن السماء ولم يكن لدينا قحط ولا صحراء وها نحن اليوم نستعير الأرض منهم ونسلمها لأبنائنا وقد فقدت زهوها واخضرارها وكثرت الحرائق فيما تبقى من غاباتها وتلوثت بيئتها وكثرت أمراضها.

أما الأمطار فقد بلغت درجة حموضتها حداً لا نحسد عليه بتنا معها لا نستطيع شربها ، أمّا مياه أنهارنا فقد أصبحت غير صالحة للشرب. وكذلك المياه الجوفية فلم تعد تصلح إلا للإستخدام المنزلي إضافةً إلى ازدياد نسبة الأراضي غير المزروعة وازدياد مساحات الأبنية، مما زاد في عوامل الجفاف والتصحر.

إنها الأرض أمانة في أعناقنا ونحن أنما زائرون وضيوف ولا أظن الزائر أو الضيف ي قوم بالفساد في د يار الذين استضافوه. إنها أمانة حملها الإنسان ورفضت حمل أثقالها الجبال الرواسخ.

وها نحن اليوم نعير أبناءنا أرضاً بلا ماءٍ فيشرب، ولا شجرٍ فيكون معيناً للطبيعة، وبلا بيئة سليمة تكون عوناً للأبناء في تكوين أجسام وعقول سليمة ونحنُ لم نربِّ أبناءنا على تنمية الزراعة والحفاظ على البيئة والثروات الطبيعية ولا على كيفية معالجة المياه وإدارة النفايات الصلبة والإستفادة منها.

نحن لا ندَّعي أن كل ما جرى ويجري من تغيرات في المناخ والطبيعة والأرض والمزروعات هو من عمل المخلوق حصراً ولكن للطبيعة التي كوَّنها الخالقُ دوراتٍ ودوراتٍ كونية قد تساهم في تفاقم الأزمة وتفاقم ظاهرة التصحر ، إلا أن المسؤولية الكبرى تقع على عاتقنا نحن في كيفية التعامل مع هذه الطبيعة.

من هنا يأتي دور هذا المؤتمر الأول حول مكافحة ظاهرة التصحر في لبنان والذي نأمل من خلاله الخروج بتوصيات قادرة على تصحيح هذا المسار العاكس لقوانين الطبيعة كما نأمل استمرار التعاون الوثيق بين جميع مؤسساتنا لما فيه مصلحة البحث العلمي والتعليم الأكاديمي ودعم التدريب الميداني بكافة أشكاله خصوصاً بين المؤسسات الجامعية والمجتمع الأهلي والمدني وكلية الزراعة في الجامعة اللبنانية.

إن مكافحة التصحر تقع على عاتق كافة شرائح المجتمع من مؤسسات وجمعيات أهلية ومدنية وجامعات ومؤسسات تربوية وإعلامية وإجتماعية واقتصادية وذلك للعمل مجتمعين ضمن ورشة وطنية عارمة من أجل كبح جماح ظاهرة التصحر بل وإعادة ما فقدناه من مساحات خضراء وغابات.

وللقيام بما يمليه علينا دورنا العلمي والأكاديمي، بدأنا من هذا العام بتدريس مقررات جامعيةٍ جديدة حول التصحر والغابات وإدارة حرائقها متمنين على باقي الجامعات في لبنان أن تحذو حذو كلية الزراعة في الجامعة اللبنانية. كما نتمنى أن تكون توصيات هذا المؤتمر بالمستوى الذي نطمح إليه جميعاً من خطوات عملية على صعيد محاربة ظاهرة التصحر والتي بات المواطن العادي يشعر بها ويتأثر بها تأثراً مباشراً.

وفي الختام أتمنى النجاح لمؤتمرنا هذا والتعاون الدائم مع وزارة الزراعة ومع مؤسسة جهاد البناء الإنمائية ، وأن نتشارك جميعنا كل بحسب موقعه في تنفيذ كامل الحطوات اللازمة لمحاربة آفة التصحر في وطن كنا نتغنى فيه دوماً بجمال طبيعته وتنوع غاباته وكثرة نباتاته الطبية منها والتي ذات المنفعة الصناعية.

عشتم، عاشت كلية الزراعة وعاشت الجامعة اللبنانية وعاش لبنان.